حجرة السيدة "س"

- أتعرف؟ أنا أحب أحذيتي القديمة.

قالتها السيدة "س" بعدما انتهت من ري أصص نباتاتها. لحجرتها بابان، وشباك صغير يطل على السماء. لن تقاوم الإطلال منه في ظهيرة الأيام الخريفية البديعة. على الشباك ستارة زرقاء تصل للأرض ويحركها الهواء كعروس ماريونت. يعكس الضوء المربعات المطبوعة على الستارة "الفوال" فوق الكنبة المجاورة وعلى أطراف وسائدها ويتدلى للأرض. حين تطير الستارة في فضاء الحجرة، تؤرجح ظلال المربعات في طريقها ذهابا وإيابا، وتتداخل المربعات وتختلط أشكالها وتتمازج لتكوِّن أشكالا هندسية أخرى مختلفة الأبعاد ثم تعود لتربعاتها بسكون الهواء.

حجرة متوسطة، طويلة إذا دخلت من الباب الأمامي. الشباك الصغير أمامك على اليمين قليلا. أمامه كنبة اسطنبولي عريضة تحب أن تجلس فوقها السيدة "س" في الصباحات الرائقة. تراقب المربعات فوق طرف الوسادة، تعدها بهدوء وصبر وتعيد عدّها بعد كل مرة يخلطها الهواء في طريقه.

كانـت تعلم أنها خمسـة عشر مربعًـا، ثلاثة في كل صف أفقي وخمسـة في الصف الرأسي، لكنها لم تكف أبدًا عن عدّ ظلالها الساكنة بجانبها.

تشرب الشاي الخفيف بالنعناع قبل استيقاظ الجميع، لا تحب النعناع المجفـف، إنما تضع أوراقه الطازجة في كوب الشـاي. تغمسـه بإصبعها الأبيـض الأنيق في الماء المغلي بعد قطفه مبـاشرة من أصيص الزرع الذي يزين شباكها.

بجانب أصيص النعناع أصص كثيرة لكنك لن تراها من الباب الأمامي للحجرة. لن ترى منها سوى ما يسمح الهواء به أو إذا دعتك السيدة "س" لتسقيها وفتحت الستارة بنفسها. ثم تجلس بجانبك وتستأنف حديثها:

– أحذيتي القديمة تعرفني أكثر مما يعرفني أي شخص آخر. هل ترى الإصبع الطويل المنفر هذا؟ إنها تحتويه وتحبه رغم قبحه. إنها تبتسم في لطف في نهاية المشـوار، قبل أن أسـتند إلى أطرافها كلاعبة بالية قعيدة. حتى أني أغمض عينيّ حـين أكون بصحبة الحذاء الأحمر لأنه يعرف الطريق جيدا ولا يخذلني. الأحذية القديمة الجيدة لا تخذل أحدًا.

لا ترد، فقط أومئ برأسـك في تفهم. إنك هنا لأن السـيدة "س" تريد الحكي لا لتستمع لحكاياتك، هي وقحة، لن تتأخر عن تذكيرك بهذا.

أمام الكنبة، على يسـار الشباك، سـتجد سريرها. سرير خشبي صغير

مطعـم بالنحاس، لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سـنتيمترات. لن تقيس العرض بالطبع للتأكد لكنك ستسمع السيدة وهي تقول إن السرير عرضه مائة وعشرة سنتيمترًا بالتمام. ستسمعها تحكي عن زوجها الذي أرسل في طلب السرير خصيصا لها قبل رحيله.

جفاها النوم على سريرهما العريض. فنقلته السـيدة من أمام الشـباك، لكنه كان عريضا لدرجة لا تسمح له بالمكوث في مكان آخر. حينها، أرسل زوجها طلبا مع ابن عمه للنجار الأشـهر بالقريـة البعيدة ليصمم سريرًا خشبيًا بقوائم نحاسية عالية مجوفة لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سنتيمترًا لأن السـيدة تكره الرقم عشرين ولن تسمح المساحة يسار الشباك بسرير يزيـد عن المائة وعشرين. ثم مات زوجها في اليـوم التالي لقدوم السرير. كان نائمًا فوق الكنبة، كما كان ينوي أن يفعل بقية عمره.

بجانـب السرير تسريحة بمرآة عريضـة متصلة بدولاب صغير خاص بالسيدة فحسب، تحتفظ بمفاتيحه بجيب فستانها، وكل فساتين السيدة بها جيـب في الناحية اليسرى حتى التي تأتي بدون جيوب، تخيط بها جيبًا من القماش تقصه بعد تقصير الفستان لأن السيدة "س" قصيرة، أقصر من كل الفساتين التي تباع في هذه الناحية.

بالتسريحة أربعة أدراج بدون مفاتيح لكن بقيود كثيرة مفروضة على من يجرؤ ويقترب. تحتفظ في أول درج بعلبة شـيكولاتة بلاستك أنيقة عليها

ورود بارزة ملونة، علبة دائرية بدون غطاء وبدون شيكولاتة كذلك، مليئة ببكرات الخيوط الملونة وبالأبر الطويلة والقصيرة وإبرة كنفاه ودبابيس مشبك وإبرة وبروش فراشة مكسور جناحها وجناحها بجانب العلبة، وضعته في الدرج بمفرده لأنه مفرغ ويمكن للخيوط الاشتباك معه. نسيته مع الوقت وذكرتها أنا به حين فتحت الدرج دون أذنها وأخرجت الجناح، كنت أنوي الاحتفاظ به. لكن السيدة رأتني قبل إخفائه بجيبي ونزعته مني قائلة إن للجناح فراشة.

بالدرج الثاني، ألبومات صور، إذا أحبتك السيدة "س" ستأخذك من يدك وتجلسك فوق الكنبة العريضة، ستطلب منك تناول إحدى الوسادات التي بجانبك لتضعها في الفراغ بين ظهرك ومسند الكنبة حتى تستريح أكثر بجلستك. ثم تضع ألبوم الصور الكبير بحجرها والألبومات الأخرى بجانبها، متراصة الأقل عرضا بالأسفل والأكبر بالأعلى. ينزلق الألبوم الكبير طوال الوقت وتعدل هي وضعه باستمرار. ستودّ أنت لو تضعه بالأسفل ليستقر لكنها ستكون حريصة على وضعه هكذا، بالأعلى، لأنه الثاني في الترتيب الزمني بعد الذي في حجرها. إذا أحبتك السيدة ستزهقك، ستحكي لك عن تاريخ كل صورة.

السيدة "س" التي أخذت ذاكرتها في التآكل، لا تنسى أبدا لون فساتينها التي كانت ترتديها في الصور الأبيض والأسود، وستظل تبحث بعينيها

الخضراوين حولها عن درجة اللون الأقرب لألوانها وحين تصل لصورتها التي تمسك بها الكرة على شاطئ المعمورة، ستشير لفستانها المنفوش القصير وتقول إن النقط الصغيرة تلك كان لونها أبيض بالفعل كما تبدو بالصورة أما الفستان نفسه فإنه بلون عينيها، وستبرّق لك لتدعك ترى.

لن تعرف ما بالأدراج الباقية، لأن السيدة "س" نسيت ما بها. لم تعد قادرة على الانحناء لذلك كفت عن الاهتمام ولم تعد تنهر من يعبث بمحتواها. قالت لنفسها منذ سنوات إنها طالما لم تعد تتذكر شيئاً فإنه حتما ليس بالشئ المهم. فما ننساه يظل يدق في الدماغ بإزعاج لينبئنا أن علينا التذكر؛ لتظل ما بقى من عمرك تفتش عنه لكنك لا تجده أبدا.

أما الجدران، فبيضاء منقوشة برسومات حمراء صغيرة. لطالما وقفت أنا ملاصقا لها في محاولة لاستخراج أشكال مختلفة. كانت كل الرسوم تشبه أحصنة البحر لكنها لم تكن مطابقة لأجسادها الضئيلة الدقيقة. كما أني لم أكن على علاقة جيدة بحصان البحر، لم أعرفه في طفولتي وبدا لي كائنا باردا لا يربطني به شيء. في كل زيارة كنت أحاول أن أفتش عن رسمة جديدة. رأيت العديد من العلامات الموسيقية والبط الصغير والورد البلدي المفتح وأولادًا ضاحكين أو بكائين. أصبح الأمر كتميمة حظ، ما أكتشفه في كل مرة قد ينعكس على يومي بأكمله.

حين تمر عليها تجدها لا تبالي، متفردة في وحدتها. تتحدث في كل شئ

لكنها لا تفصح عما تفكر. استيقظنا يومًا على جلبة شديدة، ثم شاهدنا أثاث شقتها كله بالشارع، يرفعه حمالون ويثبتونه على عربة كبيرة. حسبنا أنها ستنتقل لمكان آخر، لكنها لم تبرح مكانها. أبقت على حجرتها. حاولت وضع نفسي مكانها، أن أبقى مع شباك جميل بإطلالة، أن أرتدي الفساتين الملونة الجميلة وأزين شعري بأمشاط صغيرة مزينة باللآلئ، أن أنام فوق سرير جميل صُنع بالحب. أن أكون وحيدا تماما فأدعو الجيران لأحكي حكايات.

عرضت السيدة حجرات شقتها للإيجار، كل حجرة على حدة. كان المقابل هو قبول دعوتها على كوب شاي بنعناع طازج أو على الغداء أحيانا وتركها تتحدث. لم تقل إن من حقها أن تعرض عليك ألبوم الصور أو حكي حكاية سريرها الصغير أو حتى التحدث عن الأحذية القديمة.

للحجرة بابان كما أشرت، كان يمكنك أن ترى حياتها من الباب الآخر كذلك، لكنك لن تستطيع الآن لأن المستأجر الجديد أغلقه بمزلاج كبير أما هي، السيدة "س"، فلا تغلق بابها أو شباكها على الإطلاق.